



أيها الحمقى المغفلون!.. ضيّعتم الثورة، شوّهتم صورتها ونقاءها، جعلتم منها مادة دسمة للشامتين من شبيحة الأسد، ومادة انتقادٍ لاذعٍ يرمي بها الذين كانوا يؤمنون يوماً ما بنور الشعب السوري... اتحدوا أيها الحمقى! الحافلات الخضر صارت على أسوار الغوطة، وأنتم عنها غافلون، وفيما بينكم متناحرون متقاتلون...هل لهذا خرجم؟! هل لهذا رفعناكم على الرؤوس؟! سوّدتم وجوهنا سوّد الله وجوهكم!

هذه الصرخات الصادقة في كثير من الأحيان يبعث بها إلى الغوطة طيفٌ واسعٌ من الناقمين على وضع الغوطة الحالي، وهل يرضى بهذا الوضع أحد؟!

لكن لعل انشغال أهل الغوطة بمقارعة أعدائهم على الجبهات، والانغماس والاقتحام والاشتباك، وهمّ المتواصل من لملمة جراحهم ودفن شهدائهم واستخراج أهاليهم من تحت الركام، حال دون وصول الإجابة إلى أصحاب هذا النوع من الصرخات، ولعل الوقت قد حان لتخرج الإجابة من قلب كواه الأسى وأدماه توالي الطعنات من مختلف الجهات.

لقد حوصلنا منذ أكثر من أربع سنوات، فأرسلتم إلينا بجيوش فك الحصار سلسلة متواالية من المقالات والتقارير الصحفية.

أكلنا في الغوطة ورق الشجر، ورأينا هياكل عظمية تمشي بيننا، فسُيرت إلينا قوافل من آلاف الدقائق التلفزيونية. أفاض علينا الأسد بالكيماوي والعنقودي والنابالم والقتل المحرّم والقتل المباح، فأفضتم علينا بملابس التغريدات التي تشجب و تستنكر.

حُرمنا السلاح الذي ندافع به عن أنفسنا، فزودتمونا بأسلحة من الكلمات الغاضبة التي تخدرون بها ضمائركم لتشعروا أنكم قدّمتم شيئاً.

وفي ظل هذه الظروف العصيبة، والخذلان من القريب والبعيد إلا من رحم ربّي، طورنا أساليبنا في الصراع من أجل البقاء على قيد الثورة، اشتدّ علينا الحصار، فأكلنا رغيفاً كل يومين، وأكلنا الحشائش نسدّ بها رمقنا، حُرمنا المواد الأولية، فحفرنا الأنفاق بأيديِ وأجساد منهكة لنؤمن أساسيات الغذاء وال الحرب.

ساد التفرق أرجاء سوريا، فوحّدنا صفوفنا في العسكرية والقضاء والاقتصاد والتعليم والإعلام، مُنِع عنّا السلاح، فأنشأنا رغم شُحّ الموارد مصانع للتسليح ليس في كل الأراضي المحررة في سوريا مثلها.

تحمّلنا القصف بأشد الأسلحة، وقاومنا على الجبهات المرتزقة وال مجرمين وشُذّاذ الآفاق القادمين من كل فجّ وصوب، وواصلنا الثورة رغم كل المعوقات، ورغم الطعنات التي لا تنتهي.

أما أمّهاتنا وزوجاتنا وأخواتنا، فتلك حكاية أخرى من الصبر والصمود والتضحية والبذل، رغم ما في قلوبهنّ من لوعات تهدّد الجبال هداً.

هذا حالنا، وبينما نحن على هذه الحال من التصدّي لشراست العدو والمعاناة من خذلان الصديق، إذ تلقت الغوطة طعنةً من مأمن !!

أجل، لقد جاءت الطعنة من حيث لم يحتسب أحد، ومن مكان قريب جداً، فانغرست في الخاصرة انغراساً، وأعملت في الجسد طعناً، وتسبّبت بإضعاف القوة، وخسارة الغوطة لسلّتها الغذائية في قطاعها الجنوبي، وانقسامها إلى مناطق نفوذ. طعنةً شقّت الصفّ، وسفكت الدم، وسلبت الحقوق، وفتّت المجتمع، وأشمتت الأعداء. طعنةً ما زلنا نحاول التعافي منها حتى اليوم بكل ما نملك: بالحرّاك الشعبي للضغط باتجاه الحل، وبنداءات إلى من يملكون حقيبة طبيةً أن توقفوا عن استعمال المرهم وحده فإن الجرح عميق!

ونحن نعيش هذا الألم بعد تلك المقاومة وذلك الخذلان، توقّعنا من أولئك الذين سبق أن أمرطونا بتغريداتهم ودقائقهم التلفزيونية أن يقفوا معنا على الأقل بالوسائل ذاتها، وأن يعيّنونا على أن نوقف الخنجر الذي ما زال يقسم الغوطة إلى نصفين، فيحول دون رتق جرها ووقف نزيفها. لكن المفاجأة كانت أنّا ما وجدنا من فئة منهم سوى السبّ والشتّم والخطاب المستعلي الذي قرأتموه في بداية المقال، وكأنّا لم يخلق الله أحداً حريراً على التوحد ورصّ الصدوف سواهم، وكأنّا أهل الغوطة لم يبذلوا كل وسيلة ولم يسلكوا كل طريق في محاولات رصّ الصف من جديد وتقليل الأضرار واستعادة العافية.

هذا الخطاب الاستعلائي الوصائي مرفوض لدينا داخل الغوطة، ولا يظنّنَ ظانُ أننا ننظر إليه وهو يطرح هذا الخطاب على أنه مشفّق حريراً علينا وعلى ثورتنا، بل إننا، مع كل الاحترام والتقدير للصادقين، لا نرى هذا إلا تهريباً من المسؤولية، ومحاولة إساءة لنا ولتضحياتنا لن تصيب إلا قائلها.

من كان مشفّقاً حريراً، فليتقدّم خطوةً إلى الأمام، وليرقف إلى جوار الحرّاك الشعبي الذي هبّ إلى الشارع يطالب بحقوق المواطن البسيط، ومن أهمّها أن تشتّرك الفصائل في غرفة عمليات تمنع اقتحام غوطته وتبعده الخطر عنها.

من كان مشفّقاً حريراً، فليمارس ضغطاً حقيقياً على الفصائل داخل الغوطة لتسجّيب لمطالب الشارع العادلة.

من كان مشفّقاً حريراً، فليحرّك الجهات العسكرية والسياسية والشرعية التي تمتلك القدرة على الضغط، لتمارس دوراً

فاعلاً في قضية الغوطة، وتنفذ الثورة من أن تصبح ثورةً بلا قلب!

أما من ترك العمل الجاد، وانطلق يشتم الجميع ويخون الجميع (شعباً وفصائل ومؤسسات)، ويظنّ أنه بذلك يحسن صنعاً، فقد خاب مسعاه، ولستنا بحاجة إلى شفقته وحرصه إن كانت من هذا النوع.

يهمّني أن أشير أخيراً إلى أن هذا الرفض وهذا الانتقاد، ليس متوجهاً لمن ساند الثورة والغوطة بالقلم والصوت والصورة، وكيف لي أن أنتقد ذلك وأنا إعلامي لا ينصبّ عملي إلا على هذا، وليس متوجهاً لمن يسعى في الإصلاح الجاد، ويتفاني في ترميم ما تهالك من بنياننا ورثق ما انفق من جرحتنا.

كما أنه ليس متوجهاً لأهل الخير من ساندوا الثورة والغوطة بالمال والإغاثة، فأعانوها على الصمود ووقفوا معها في أحلك المحن، فهوّلاء لا تكفي الساعات التلفزيونية الطويلة لشكرهم الثناء عليهم، وهم ليسوا من يطلب ذلك أصلاً، فدعوة عجوز مختلطة بدمها تكفيهم رضيًّا وسعادةً أبد الدهر.

وإنما الرفض كل الرفض، متوجّه لتلك الفئة التي تظنّ أنها أوتّيت حكمةً وحرصاً ما رزق الله مثّلها لرجل واحد في الغوطة بأسرها، فكان مشروع حكمتها أن تجول الألسنة وتصوّل في القدر في أهل الغوطة وحرصهم على ثورتهم، وهي تظنّ أنها ممتنّة على الغوطة من قبل ومن بعد، فأمثال هؤلاء لا أحاج الله الغوطة إلى منّتهم، ولا أسمعنا الله صوت حرصهم المزعوم، فما زادوا جرحتنا إلا اتساعاً، ولا حالنا إلا ألمًا.

أوريينت نت

المصادر: